المدخل إلى علم السنن الإلهية في التغيير الحضاري في ضوء القرآن والعقل والتاريخ

د. يونس ملال

جامعة أدرار

– **معنى السنن وسنة الله في اللغة العربية:** يقال سنن ومفردها سنة (بضم السين وفتح النون مشددة) وقد جاء في لسان العرب معاني كثيرة للسنن، كالسِّن بمعنى الضرس أو العمر، والسِّنة والمسنون، بمعنى الوجه المصقول، وكذا أداة الصقل وغيرها..ومما يعنينا في هذا المقام ما ذكره ابن منظور من أن السنة هي: السيرة، حسنة كانت أم قبيحة، وكل من ابتدأ أمرًا عمل به قوم بعده، قيل هو الذي سنّه.

وسنّه الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسنها الله للناس: بينها ، وسن الله سنة أي بيّن طريقا قويمًا [1].

وللفظ في لغة العرب معاني أخرى منها الدوام والثبات على الأمر، كقولهم سنّ الماء إذا داوم على صبه، وسنّ الإبل إذا داوم على رعيها والإحسان إليها [2].

– **معنى السنن وسنة الله في اصطلاح العلماء:** نظر أسلافنا من أهل العلم إلى السنة على أنها هدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيانه لمعاني القرآن الكريم وسموا ذلك سنة قولية، أو ممارسته للحياة العملية وفق معاني القرآن الكريم وسموا ذلك سنة عملية، أو إقراراه الناس على أمر ما وسموها سنة تقريرية، فكان المعنى يتجه إلى أن السنة هي المنهج القويم والطريقة المثلى في مباشرة الحياة الفردية والجماعية وفقا لشرع الله تبارك وتعالى أو هدي الله كما بينه الرسول الكريم، تلك الطريقة التي تستحق الثناء في الدنيا والجزاء الأوفى ثوابا يوم القيامة.

ومع بداية تدوين العلوم انفرد أهل كل فن واختصاص في الإسلام بتعريف، فباتت السنة عند المحدثين مرادفة لما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلُقية. وهي عند الفقهاء النّدب أي ما طلب الشارع من المكلّف فعله طلبا غير جازم يستحقّ فاعله الجزاء ولا يذمّ تاركه. وعرّف الأصوليّون السنة بأنها المصدر الثاني للتشريع ممثِّلة في الأحاديث المنطوية على أحاكم شرعية.

كما اشتهر القول كذلك بأن السنة معناها ما يقابل البدعة، وإذا كانت السنة هي هدي النبي وبيانه لهدي الله وشرعته، فإن البدعة هي الاختلاق، وهي الطريقة المخترعة في الدين يراد بها مضاهاة الشريعة [3].

والسنة في هذه المداخلة وفي الفكر الإسلامي الحديث وفيما اصطلح عليه بالفقه الحضاري عموما أشمل من أن تكون حكم الله التشريعي الذي بينه رسوله في الحديث، إن معناها هو: مطلق أحكام الله وأوامره ونواهيه وعادته في معاملة خلقه، ومجمل بيانه للطريق المستقيم وحال من سار عليه من السعادة أو من خالفه من الشقاء، يستوي في ذلك أحكام الله وعادته التي أجراها على الكون المادي وتلك التي أجراها على البشر أفرادا وجماعات وأمما. فهي موافقة لسعة

([1]) جمال الدين بن منظور، لسان العرب، مج 13، مادة سنن ص 220-229:

([2]) محمد هيشور سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ص 23.

([3]) أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، دار الشريعة ، ج1، ص28.

معنى اللفظ في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى:" سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" [1] ومثله قوله عز وجل: " سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا" [2] وقوله جل وعلا: " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله "[3] وقوله تعالى: " فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى"[4].

والنظر إلى الكون والحياة بالمعنى السنني الشامل لم يكن موضوعًا بارزًا للبحث عند المتقدمين، فلا نكاد نقف عندهم على تعريف اصطلاحي شامل لمعنى السنة الإلهية كما ذكرت في القرآن الكريم، على كثرة ما ذكرت، ذلك أن علم السنن والنواميس المادية الطبيعية أو التاريخية الإنسانية(السنن الحضارية) قد تأخر تناوله في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشر عموما، ولعله إلى اليوم ما يزال موضوعا بكرا. غير أننا نجد بعض الإشارات عند علمائنا القدامى، ومما ذكروه في معنى السنة قول الإمام الرازي في تفسيره: " **السنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع**" [5] وما ذكره الإمام ابن تيمية بقوله: **"السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني ما فعله في الأول ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار"**[6].

– **لفظ السنن الإلهية ومعناها في القرآن الكريم**: ورد ذكر السنن الإلهية أو سنة الله في القرآن الكريم بلفظها سبعة عشر مرة تشعبت تصريفاتها بين الإفراد والجمع، وتنوعت إضافاتها بين الإسناد إلى ذات المتكلم سبحانه وتعالى أو إلى الأمم الخالية من الأولين [7]، وإسناد لفظ السنة إلى الباري سبحانه هو إسناد أصالة، إذ إنه سبحانه خالقها ومبدعها ومبدعها على الهيأة المخصوصة التي قامت عليها، أما إسنادها إلى الأمم الخالية فهو إسناد انفعال بها، وإجراء من الله تعالى لهذه السنن على تلك الأمم بثبات واطراد على وفق عادته سبحانه في معاملة خلقه.

والجدير بالملاحظة أن القرآن الكريم لم يعبر عن السنن الإلهية بلفظها إلا في موضوع واحد، هو التاريخ البشري فيما يرتبط بمسائل النفس والاجتماع، أو قل في موضوع الحضارة الإنسانية، أي فيما يرتبط بسلوك الإنسان فردا وأمة.

وإذا كان حاضرا في أذهاننا تأكيد القرآن الكريم في كل موضع يذكر فيه السنة الإلهية على شموليتها وثباتها واطرادها، تبينت لنا الحكمة من التخصيص القرآني للفظ السنة الإلهية بمسائل الاجتماع البشري، إذ الإنسان هو الكائن الوحيد على وجه المعمورة الذي يعتبر نفسه حرا يتصرف على الأرض كيف يشاء، ويتخذ لنفسه طريقا من بين ألف طريق وطريق، فلا رقيب لسلوكه ولا راد لاختياره، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يشعر من نفسه فعلا بهذه الحرية من بين جميع أجزاء الكون الحي منه والجامد. وإذا كان أمر الإنسان كذلك، فكيف يكون لسلوكه قانون صارم؟

([1]) فصلت: 52.

([2]) الأحزاب، 62.

([3]) الأنعام، 154.

([4]) طه، 121-122.

([5]) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج9، ص10.

([6]) عبد الحليم بن تيمية، مجموع التفاوى ،ج13 ص140.

([7]) محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 23-24.

إن القرآن الكريم يقول للإنسان كلاً .. فإن الله عز وجل قد جعل لسلوكك وأفعالك سبلا محددة ومحدودة من حيث تشعر أولا تشعر، تختزل هذه السبل في نهاية المطاف في سبيلين أساسيين لا ثالث لهما وفي هذا يقول القرآن: " **وهديناه النجدين**" [1]، ويقول: " **إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورا**" [2].

فكل طريق يأتي ولابد بثماره، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ولن يجني الإنسان من الشوك العنب.

وسلوك الإنسان في الزمن، وهو ما نسميه بالتاريخ، لا يعدو أن يكون مباشرة أفعال وتلقي نتائج، والسؤال الذي يرد هنا ابتداء: هل يملك الإنسان نتائج أفعاله كما يملك مقدماتها؟ والسؤال الذي يرد ثانيا: من رتب النتائج المعينة المحددة المخصوصة على مقدماتها المعينة المخصوصة؟ أما السؤال الذي يرد ثالثا: هل يملك الإنسان تغيير ارتباط الأسباب بمسبباتها أو النتائج بمقدماتها؟ .. وبعبارة أخرى: هل حرية الإنسان التي يقيم عليها تنصله من السنن الإلهية في هذا الكون حرية حقيقية ومطلقة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تكشف بلا ريب عن جانب مهم مما أراد القرآن الكريم أن يرسخه في عقول البشر من معنى السنة الإلهية ونفاذها اللازم في الحياة وثباتها الذي لا يملك أحد تغييره بإطلاق.

والذي أريد التنبيه عليه هاهنا هو أن إحدى معاني السنة الإلهية كما وردت في القرآن الكريم هي: خلق الله تعالى للعالم، أي ما سواه، بما في ذلك الإنسان على هذه الهيئة المخصوصة التي هي إحدى الإمكانات العقلية، وجعله سبحانه سلوك الإنسان . فردا وأمة . مربوطا ومقيدا ضمن طبيعة الخلق وخصائصه، أو بعبارة أخرى فإن **السنة الإلهية تعني من هذه الزاوية وضع مخصوص للكون والإنسان وللعلاقة بينهما، ولوظيفة كل منهما، وإخبار عن هذا الوضع في القرآن الكريم**.

ولما كان فعل الله مقترنا أبدا بالحكمة لأنه الحكيم، وبالعدل لأنه العدل، جاءت السنن الإلهية أو هذا الوضع الإلهي المخصوص (أي السنن) حكيما وعادلاً، سواء أدرك العقل البشري ذلك أم استعصى عليه الإدراك.

والقرآن الكريم من خلال ما يعرض من القصص خاصة، يبين للناس بهدايته ويدعوهم بإرشاده، إلى العوامل التي من شأنها أن تقود إلى معرفة سبل التغيير نحو الأحسن واختيار الطرق التي تهدي إلى السعادة في الدارين.

من أمثلة ذلك عرض القرآن الكريم لأحوال أرباب الحضارات السالفة، من الصالحين والطالحين، وعرضه لعاقبة أمرهم، وتأكيده أن ذلك مطرد في الآخرين كما هو في الأولين.

ومن ذلك أيضا إعلام القرآن الكريم الإنسان بالحقائق الغيبية التي لا سبيل إلى معرفتها بصفة قطعية أو مفصلة خارج مجال السمع، كطبيعة خلق الكون والإنسان التي قال فيها تعالى: " **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا**" [3].وكخلق الكون مسخرا للإنسان، لا هو له عدو ولا هوله إله، وكخلق الإنسان من طبيعة مزدوجة فيها الروح والطين، وكخلق الإنسان حاملاً للأمانة بعد أن كان ظلوما جهولاً، مبتلا

([1]) البلد، 10.

([2]) الإنسان، 3.

([3]) الكهف، 50.

في الأرض على النجاح أو الفشل في مهمة العبادة والعمارة والخلافة، تلك المهمة التي أنيط بها رضى الله على هذا الإنسان أو سخطه، وأنيط بها خلود الكائن البشري في النعيم أو انحداره إلى الجحيم ومن ذلك أيضا، إخباره تعالى بعدم جدوى مغالبة الحق الذي جاءت به الرسل، والذي ينتصر دائما وتكون له العاقبة أبدا، ذلك لأن الكون مبني في أساس تكوينه وعمق فطرته وأصل خلقته . أي في ماهيته . على ما يجعل الحق يمكث في الأرض والباطل يذهب جفاء كزبد البحر، قال تعالى: " **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز**" [1]، وهذه الغلبة لها محتوى سببي ومعنى سنني وكوني مرتبط بأصل العلاقات العامة، وطبيعة الأشياء المخلوقة لله تبارك وتعالى في هذا الكون.

ولا مطمع في أن تتغير هذه القاعدة، فقد قال تعالى مخبرا عن ذلك: " **ولن تجد لسنتنا تحويلا**" [2] وقال: " **فلن تجد لسنة الله تبديلا**" [3]، أي أنه لا يبدلها سبحانه ولا يقدر أحد غيره على تبديلها.

فلم يبق للإنسان سوى أن يتخندق في معسكر جند الله الغالبين، فينعم بسعادة يحسده عليها الملوك والقياصرة دأبه السعي الدائم الحثيث للرفع من شأن الفضائل والمنافع، ليبني بذلك حضارته ويحفظ على نفسه كرامته، أو يميل مع الشيطان و " **إن كيد الشيطان كان ضعيفا**" [4] وحزبه كان مهزوما، فيستعد لملاقاة مصيره المشؤوم الذي قوامه ظلمة النفس وضنك العيش في الدنيا والحشر يوم القيامة أعمى.

وإذا كان السؤال عن كيفية العلم بهذه السنة وهذا الوضع والمنهج، فإن تنظيم الإسلام للعلاقات العامة بين الخالق ومخلوقاته، وبين المخلوقات الكونية (السماوات والأرض) والمخلوقات البشرية (الإنسان الخليفة)، وتوضيحه للعلاقات بين الإنسان وأخيه، وتبيين الإسلام للحقوق والواجبات العامة، وجعله أكثر ذلك عقائد لازمة وأخلاق نافذة وتكاليف عملية واجبة الاتباع وفق (نظام الخلافة)، لهو الكفيل برأب الصدع في أجزاء الكون وجمع لحمته في تكامل بين جميع المخلوقات بطريقة مثمرة وفاضلة.

فتكون بهذا المعنى التكاليف الشرعية والأوامر والزواجر الإلهية سننا إلهية كونية كذلك بمعنى ما، أي أنه حتى وإن كان الإنسان مخيرا ابتداء في اتباعها أو الإعراض عنها مما يوهم بعدم موضوعيتها كونيتها، فإنه غير مخير مآلا فيما يترتب على ذلك في الدنيا قبل الآخرة ويكون مخالفا . بمخالفتها . لطبيعته وفطرته ومن ثم لمصلحته ومنفعته وسعادته في العاجل والآجل.

وهذا جانب آخر لمعنى سنة الله كما ورد ذكرها وبيانها في جملة عريضة من آيات القرآن الكريم من ذلك قوله عز وجل: "**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**" [5]

([1]) المجادلة، 20.

([2]) فاطر ، 44

([3]) فاطر، 43.

([4]) النساء، 75.

([5]) طه، 121- 124.

فالشقاء يكون في الدنيا والآخرة معا، ومن ذلك قوله تعالى: " **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**" [1] دلت هذه الآية على أن الغاية من الخلق عبادة الله، فتكون طبيعة الكون وطبيعة الإنسان قد خلقت على وفق تأدية هذه الغاية، ومن ثم كان السعي لخلاف هذه الغاية مخالفا لطبيعة الخلق وعائدا على أصحابه بوبال أمرهم .. ومثل هذا في القرآن كثير سواء كانت دلالته صريحة أو ضمنية.

2- **ألفاظ القرآن الكريم في الدلالة على سنة الله:** إذا كان القرآن الكريم قد اقتصر في التعبير بلفظ السنة التي لا تتبدل ولا تتحول على أحوال الأمم وسلوك البشر، فإن ذلك لا يعني بأن سنة الله مقتصره على سلوك الإنسان.

وباعتبار أن الله تعالى هو خالق كل شيء فقد فطر جميع الكون على نظام معين لا يحيد عنه ولا يتخطاه، وعبر عن ذلك في مواطن كثيرة منها قوله تعالى: " **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**" [2]. فعبر القرآن هاهنا عن الناموس الكوني الذي يجري عليه الله الليل والنهار والشمس والقمر "**بالآية**" و "**بالتقدير**".

فأما دلالة الآية فهي أن الله تعالى جعل من نظام الكون واطراد هذا النظام علامة على وجوده وقدرته وعلمه، وعلى حكمته وعدله، وقد جعل علماء العقيدة هذا النظام علما ودليلا على وجود الباري وسموه دليل العناية والنظام، وقد عبر القرآن عن السنة بالآية في مواطن كثيرة من مثل قوله تعالى: " **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**" [3].

وأما دلالة التقدير فهي أن الله تعالى ما خلق هذا الكون إلا لغاية مخصوصة ورسالة بينة، فالكون موزون مقدر محسوب بما للحساب من دقة تجعل منه مصيبا للهدف المطلوب والغاية المحددة، كما قال تعالى: " **والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**" [4] وقال عز وجل : " **وكان أمر الله قدرا مقدورا**"[5].

وهذا خلافا لمن يظن المصادفة والعبثية في خلق الله، وفي نفي هذا الظن قال تعالى: "**أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق** " [6] فلا مجال في خلق الله للمصادفة والاتفاق ولا مجال للعب

([1]) الذاريات، 56.

([2]) يس، 36-39.

([3]) فصلت، 52.

([4]) الرحمن، 5-7.

([5]) الأحزاب، 38.

([6]) المؤمنون، 115-116.

والعبث، بل إن في كل زاوية من زوايا الكون تقدير لله وسنة لله وأمر لله، كما قال تعالى: " **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين**"[1].

ومثل تعبير القرآن عن السنة الإلهية بتقدير الله وآيات الله، تعبيره عنها " بفطرة الله" و"بخلق الله " و" بكلمات الله".

ودلالة تسمية السنة الإلهية بخلق الله، هي التعبير عن الوضع الذي جاء عليه الخلق وذلك في مثل قوله تعالى: "**لا تبديل لخلق الله**"[2]، وهو ذات معنى "فطرة الله" الذي جاء التعبير به فيما يتعلق بالكون الأصم في مثل قوله سبحانه:"**فاطر السموات والأرض**"[3].

وفيما يتعلق بالإنسان قال تعالى: "**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**" [4].

وفطرة الكون الأصم في القرآن كذلك جاءت بلفظ الإسلام كما في قوله تعالى: " **أفغير الله يبغون وله أسلم من الأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون**"[5]، فدل هذا على أن لفظ الإسلام يشمل إسلام الكائنات جميعا لرب العالمين، بخضوعها وانقيادها لأمره سبحانه بما فطرها عليه.

وإذ كان من خصوصية بالنسبة للإنسان من إمكان الإقبال على الله أو الإعراض عنه فهي خصوصية جزئية لا كلية، ابتدائية لا مآلية، مقيدة لا مطلقة بما يتفق وقاعدة الابتلاء.

– **موضوع السنن الإلهية في القرآن الكريم**: من خلال ما تم عرضه بدا واضحا أن سنن الله وقوانينه مبثوثة في كل أرجاء الكون، حاكمة لجميع أجزائه، فلا يخرج عن قدر الله وتقديره، أو عن حكم الله وأمره شيء من هذا العالم، والعالم هو ما سوى الله تعالى، الخالق الذي لم يخلق والحاكم الذي لا يحكم والآمر الناهي الذي لا يؤمر سبحانه ولا ينهى، والمريد الذي لا يحد إرادته شيء، والقادر الذي لا يقف في طريق قدره شيء.

فسنن الله تحكم أنظمة الكون دقيقه وعظيمه، كما تحكم أنظمة الناس الفطرية والكسبية، فرادى وجماعات، وتحكم سنن الله كذلك العلاقة بين أنظمة الكون وأنظمة الناس ، ومعنى كونها تحكم كل هذا أن السنن تتحكم في الثمار والنتائج، ومن ثم في سعادة الإنسان أو شقائه في تحضره أو تخلفه، في إهلاكه أو بقائه، ولا تتحكم في المقدمات لأنها بيد الإنسان.

–العلاقة بين السنن الإلهية والحضارة الإنسانية:

([1]) يونس، 61.

([2]) الروم، 29.

([3]) فاطر، 1.

([4]) الروم، 29.

([5]) آل عمران، 83.

وإذا فهم هذا المعنى يمكن أن تفهم العلاقة الوطيدة بين الحضارة كما تم توضيح معناها وتجلية عناصرها ووظائفها في الفصل السابق وبين السنن الإلهية، حيث أن هذه السنن هي المدخل الذي يؤدي إلى التوافق بين إرادة الله من خلق الخلق، وإرادة الناس في إسعاد أنفسهم بأنفسهم.

فالحضارة بما هي غاية للإنسان وعمارة للأرض وخلافه لله، لا يمكن تحقيقها على الوجه الأكمل والأصح إلا إذا تم العلم بسنن الله والسير على وفقها إذ وضعت أصلا لأجل ذات الغاية.

فجعل الله طبيعة الإنسان العاقلة المريدة والمحتاجة إلى نور الوحي وعون الله، وجعل طبيعة الكون المنفعل المسخر المستجيب الطيع أمام الإنسان، متوافقان مع نصرة الحق والإصلاح في الأرض بعمارتها، وإرضاء الله كمقصد كلي حيوي.

أما الإعراض عن الله فهو متفق مع تشويه فطرة الكون وفطرة الناس ، وهو آيل في نفسه وبنفسه إلى البوار . وفقا لنظام الخلق وطبيعة الأشياء. فهو يحمل بذور فنائه في ذاته، إذ خلق الله الحق ليدوم والباطل ليزول.

-خصوصية السنن الإلهية في الحضارة والتاريخ:

إن السنن الإلهية في الحضارة هي: " **تلك الضوابط والقوانين التي تتحكم في عملية التحضر**" [1]، أي عملية الانتقال من البداوة إلى الحضارة، ومن الغياب على الساحة الاجتماعية إلى الحضور فيها، ومن التبعية للغير إلى التحكم في النفس والتأثير في الغير، ومن الهوان إلى التمكين في الأرض؛ أو أن السنن الإلهية في التاريخ هي تلك القواعد والضوابط التي: " **تتحكم في عملية التاريخ**" [2]، بوصفها عملية محورها الإنسان بسلوكه المنضبط بقواعد التغيير الاجتماعي وشروط الانتقال من هامش التاريخ إلى عمقه.

لقد تم بيان معنى الحضارة وتحديد عناصرها الأساسية في القسم السابق فكانت:

1- الفكرة والمبدأ : مصدرًا للحضارة.

2- تحقيق السعادة بالارتقاء بالإنسان ماديًا وخلقيًا: غاية للحضارة.

3- الإنسان باعتباره العنصر الفاعل في عملية البناء والاستخلاف: محورًا للحضارة.

4- الكون المسخر بساحتيه الطبيعية والتاريخية: ميدانًا للفعل الحضاري.

5- الزمن باعتباره مجالاً ينتظم عملية التحضر: وعاء للفعل الحضاري.

فتكون السنن الإلهية في الحضارة والتاريخ إذن هي: العوامل والقواعد والشروط التي موضوعها أحد هذه العناصر من حيث ارتباطه بالعناصر الأخرى، ومكانته بينها ودوره فيها وكيفية تفعيله، أو تلك القواعد التي موضوعها دراسة العلاقة بين هذه العناصر جميعا.

فالسنن الإلهية في الحضارة لا تهتم بدراسة القوانين التفصيلية للعلوم المادية والطبيعية كالفيزياء والبيولوجيا والطب مثلا، لكنها تهتم بهذه العلوم من حيث هي وسائل لسعادة الإنسان أو تعاسته.

([1]) محمد هيشور، سنن القرآن، ص36

([2]) محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن ، ص45.

إن السنن الحضارية هي التي تعطي للمعرفة العلمية معناها في حياة البشر، وتوضح جدواها وتسطر معالمها وحدودها، وهي التي تبين أهمية الحياة الخلقية والفكرية والصناعية في بناء الحضارة، وتبين الآثار السلبية للانحراف عن الصدق والفاعلية في هذه المجالات.

إن السنن الإلهية في الحضارة تهتم بربط السعادة الحقيقية بأسبابها، والشقاء الحقيقي بأسبابه، لذلك نجد أنفسنا أمام نمط كامل من التفكير على أساس سنني كما يعرضه الإسلام، له ما يعارضه من أنماط الفهم والتفكير المادية اللاأدرية والوجودية العبثية والوثوقية الغيبية، وأزعم أن الاتجاه السنني في الإسلام كما ـ تمثله وسطيته بحق ـ يمثل نظرية متكاملة، يقرأ على أساسها العلم المادي وتفهم على ضوئها الحياة البشرية من المبتدأ إلى المنتهى.

مصدرية القرآن الكريم للسنن الإلهية:

1- **رسالة القرآن الكريم وموضوع السنن الإلهية:** ليس غريبا أن يكون القرآن المصدر الأول لمعرفة سنة الله في خلقه، فكتاب الله أو الوحي الإلهي عموما ـ بما في ذلك السنة النبوية ـ هو البيان الرباني المخبر عن السنن وشروطها وكيفياتها وأنواعها ومتعلقاتها .. الخ من حيث أن واضع هذه النواميس هو الله تعالى، وما كان للكتاب الذي ما فرط الله فيه من شيء، أن يهمل بيان السنن التي تضم كل كبيرة وصغيرة، وتهدي الناس لرب العالمين، وتسوقهم إلى السعادة أو تكلهم إلى الشقاء.

غير أن البعض يعترض على ذلك، بحجة أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وما هو بكتاب علم يحيط بقوانين المادة وقوانين الحياة، ويعرض الأستاذ باقر الصدر رأي هؤلاء بقوله:" يخيل إلى بعض الأشخاص أننا لا ينبغي أن نرتقب من القرآن الكريم أن يتحدث عن سنن التاريخ، لأن البحث في سنن التاريخ بحث علمي كالبحث في سنن الطبيعة والفلك والذرة والنبات، والقرآن الكريم لم ينزل كتاب اكتشاف بل كتاب هداية.. نزل هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور من هنا لا نرتقب من القرآن أن يكشف لنا عن مبادئ الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان، صحيح أن في القرآن إشارات إلى كل ذلك لكنها بالحدود التي تؤكد على البعد الإلهي والعمق الرباني لهذا الكتاب.. والقرآن لم يطرح نفسه بديلا عن قدرة الإنسان الخلاقة وعن مواهبه وقابلياته في مقام الكدح، في ميادين الحياة بما في ذلك ميدان المعرفة والتجربة.. فإذا كان القرآن كتاب هداية وليس كتاب اكتشاف، فليس من الطبيعي أن نرتقب منه استعراض مبادئ عامة لأي واحد من هذه العلوم، التي يقوم الفهم البشري بمهمة التوغل في اكتشاف نواميسها وقوانينها وضوابطها، فلماذا ننتظر من القرآن أن يعطينا عموميات أو مواقف، وأن يبلور مفهوما علميا في سنن التاريخ، بينما ليس للقرآن مثل ذلك على الساحات الأخرى؟"[1].

ويركز باقر الصدر في رده على هؤلاء على الموافقة المبدئية لهذه الملاحظة، فالقرآن كتاب هداية فعلا لا كتاب علم واسكتشاف ـ بالمعنى الأكاديمي للكلمة ـ والقرآن الكريم لم يطرح نفسه بديلا عن البحث العقلي كي يجمد في الإنسان

([1]) محمد باقر الصدر، مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن ، دار التوجيه الإسلامي، بيروت/ الكويت ، ط1، 1400هـ/ 1980م، ص 35-36.

طاقات الإبداع والنمو والبحث، لكن الفرق ـ كما يرى ـ جوهري بين الساحة التاريخية وبقية ساحات الكون، فسنن التاريخ والحضارة مرتبطة أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية [1].

وإذا كانت هداية القرآن، والتغيير الذي دعا إليه مرتبط أشد الارتباط بسنن التاريخ والحضارة باعتبارها مسالك الخروج من الهوان إلى التمكين ومن الظلمات إلى النور.

مصدرية القرآن الكريم للسنن الإلهية:

بالرجوع إلى القرآن نفسه نقطع كل تشكك في مصدريته للسنن وبالاستقراء نجد أنها ثلاثة أنواع:

1- المصدرية القرآنية التوكيدية للسنن الإلهية في الكون والحياة.

2- المصدرية القرآنية التوضيحية للسنن الإلهية في الكون والحياة.

3- المصدرية القرآنية الغائية للسنن الإلهية في الكون والحياة.

ويمكن توضيح كل زاوية ببعض ما ورد في القرآن من الأمثلة والشواهد:

3-المصدرية التوكيدية : ويعني ذلك تأكيد القرآن على وجود السنن الإلهية في مجالي الكون الأصم والحياة الإنسانية والتاريخية على السواء، فما من فلك مادي إلا وله قانون، وما من حركة في التاريخ إلا ولها كذلك أسباب وغايات، منطلقات ومصبات.

لقد ذكر القرآن أن الله جعل لكل شيء سببا (التأكيد على السببية العامة في الكون) فقال تعالى حاكيا عن ذي القرنين: ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾ [2].

وذكر الله أنه قدر أمور الكون كله بحسبان وميزان فلا مجال للاعتباط أو المصادفة أو العبث أو الخرافة بالقفز على تقدير الله فقال تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾ [3] وقال: ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ [4] وقال سبحانه: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [5]، وقال سبحانه: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[6].

وتأكيد القرآن على أن أمور الكون تسير وفقا لسننها التي فطرها الله عليها دون أن تحيد عن ذلك قيد أنملة تأكيد مفصل ومتكرر...الخ

([1]) المرجع نفسه، ص36.

([2]) الكهف،83.

([3]) الفرقان، 2.

([4]) الرحمن، 5 -7

([5]) الأعلى ، 2 – 3.

([6]) طه، 49.

2- **المصدرية التوضيحية:** لم يكتف القرآن الكريم بتأكيد وجودها بل عبر عنها في سياق الحديث عن نماذج منها، ونسب الخطاب الإلهي السببية الجعلية إلى كثير من المظاهر الكونية والإنسانية، والتي لا تؤتي ثمارها إلا بهذا الجعل، مع انتفاء موانعه، فنسب الله حياة الأرض الموات إلى الماء، فقال تعالى: ﴿ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[1]، وقال: ﴿ **وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾[2]، وكسب الناس هو من ثمار أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعليها ما اكتسبت** ﴾[3]، وجعل الله القرآن سببا للهداية فقال: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾[4].

ولا ينكر أحد من المنصفين ما حواه القرآن الكريم من قوانين علمية في مختلف العلوم، حتى كان ذلك مدخلا أسلم من بابه كثير من العلماء الماديين، وقام على يد جمهرة من علماء المسلمين ما سمى بالتفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وسيقف الإنسان على كثير من الحقائق العلمية والسنن الكونية عند اطلاعه على هذه المؤلفات مما لا سبيل إلى بسطه هنا، ويكفي أن أشير إلى أن هذا الاتجاه قد استهوى بعض الباحثين لشدة ظهوره حتى صار همهم المطابقة المستمرة بين حقائق العلم المعاصر وحقائق الدين الخالدة، وبالغوا في هذا الاتجاه حتى وقعوا في بعض المثالب والمحاذير[5].

وعلى العكس من جانب العلوم المادية، فإن سنن التاريخ والحضارة والنفس والاجتماع لم تحض بالدراسة المطلوبة من قبل الباحثين مع ما يعج به الكتاب من حقائق حولها وعلى الرغم كذلك من ارتباط القرآن الكريم .ككتاب هداية وإرشاد . بمسائل إصلاح النفس والمجتمع وإقامة نظام الخلافة والعمارة.

3- **المصدرية الغائية:** بخلاف العلوم الطبيعية والإنسانية في المذاهب المادية والعقلية واللاهوتية، فإن القرآن يؤكد على غائية السنن الإلهية، أي أن هذا النظام الكوني بقوانينه ومساره العام وضع أصالة لخدمة غاية معينة، وأوكل تفعيل السنن لخدمة هذه الغاية إلى الإنسان، وهذا ما سماه القرآن أمانة واستخلافا وتسخيرا كما في قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[6]، لذلك أوجب القرآن على الإنسان أن يتعامل مع الكون تعامل المؤتمن المستخلف المقيد بنظام الخلافة، لا تعامل المالك المتسلط الذي يفسد في الأرض ويقطع الأرحام ويسفك الدماء..

([1]) الحج، 5.

([2]) النحل، 65.

([3]) البقرة، 285.

([4]) المائدة، 18.

([5]) من ذلك على سبيل المثال تفسير طنطاوي جوهري، ومن المثالب أن بعض النظريات العلمية قد تتغير ويتبين خطؤها فكيف يقال إنها من معاني القرآن الكريم؟؟ والقرآن إمام متبوع وقد جعله بعضهم تابعا لمعارف البشر النسبية، ومهما يكن من أمر هذا الاتجاه ففيه ما لا يخفي من دلالة على احتواء القرآن على نماذج من السنن الكونية.

([6]) الأحزاب، 72.

وأجب عليه كذلك أن يسخر كل ما وهبه الله إياه من النعم المادية والعقلية والأخلاقية لنصرة الحق وإعلاء كلمة الله، فلا مجال في نصرة الحق للكسالى والأغبياء، ولا مجال فيه للجاهلين والخاملين، فإن العجز في الدنيا خذلان للدين، وفي الحديث " **استعن بالله ولا تعجز**"[1]، وروي في الأثر: " **ويل لكل أمة لا تأكل مما تنتج ولا تلبس مما تحيك**"، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾[2]، فهل ينصر الله جاهلا بصناعة الحديد والخشب؟[3].

وإذا كانت قوانين الحياة قد خلقت لنصرة الحق، وجعل الإنسان مؤتمنا عليها، فيمكن كذلك أن يعرض الإنسان عن أمانته ويخونها وهو بذلك مبتلى، وعليه مجازى، لكن الجزاء سيكون بين معجل ومؤجل كما ذكرت ذلك سابقا.

فإما أن يصقل الإنسان فطرته ويعيش سعيدا وإما أن ينحرف عن هدى الله فيدمر نفسه، وهذا معنى غائية السنن الإلهية وهو المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[4].

بعد تأكيد القرآن على وجود السنن الإلهية، وإعطائه نماذج منها وحقائق عنها في مختلف مناحي الحياة . دون أن يكون هدفه إحصاؤها . جميعا، وبعد أن أظهر غائيتها ومسؤولية الإنسان ووظيفته حيالها، ترك بعد ذلك المجال واسعا أمام الناس لمزيد من البحث عبر استقراء التاريخ واختبار الواقع لتعميق العلم بالسنن ووتوسيع الكشف عنها.

فلا يقولن قائل إن القرآن قد أحاط بذكر كافة السنن، فلم يشأ القرآن أن يسد باب البحث عن الحق أمام الباحثين من أولي النهي والألباب، ولو فعل ذلك لما كان هناك معنى لدعوته المتكررة للسير في الأرض والنظر فيها، والتأمل في ملكوت السماوات، ولقد قال تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ** ﴾[5]، على الرغم من أنه بسط لنا قصة الخلق، من خلق السماوات والأرض إلى خلق آدم . عليه السلام . والبشرية من بعده في القرآن الكريم.

وهذا ما يبرر القول إن الواقع والتاريخ هما كذلك من أهم مصادر معرفة السنن الإلهية في الكون والحياة.

–الواقع والتاريخ مصدرا للسنن

الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي زوده الله بوسائل المعرفة فوهبه السمع والبصر والعقل الفاحص الذي يمكنه من فهم ما يدور حوله في هذا الوجود. وباستقراء التاريخ وفهم الراهن، عن طريق الملاحظة والتجارب المتكررة والتأكد من

([1]) رواه مسلم كتاب القدر، وابن ماجه كتاب الزهد، وأحمد مسند المكثرين رقم : 8436.

([2]) الحديد، 24.

([3]) للشيخ الغزالي والدكتور القرضاوي كلام نفيس في هذه المعاني انظر: أين الخلل، علل وأدوية، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ترثنا الفكري بين الشرع والعقل..

([4]) طه ، 121 – 122.

([5]) العنكبوت ، 19.

الفروض المحتملة، يمكن للإنسان أن يجني معرفة علمية سننية عن هذا الكون يضئ بها مستقبله وهذا ما يمكن تسميته " بالمصدرية الكشفية" للسنن الإلهية من خلال الواقع والتاريخ.. وثمة ملاحظة أساسية متعلقة بالفارق بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية التاريخية وهي أن الإنسان في أحيان كثيرة لا تنفعه الدروس الغزيرة والخطب الكثيرة إلى الاعتبار، كما أن التفكير النظري مهما كانت دقته فإنه يغفل شيئا من التفاصيل التي يبين الواقع العملي وتاريخ الأمم أهميتها، وفضلا عن ذلك فإن الإنسان لن يتمكن من فهم قوانين المادة وهو سابح في عوالم المنطق الصوري.

ودلالة هذه الملاحظة في أن الإنسان لا يمكن أن يجني معرفة صحيحة ودقيقة إلا من خلال التجربة والخطأ، أو تفادي أخطائه بالنظر في أخطاء غيره، وليس الخطأ في حياة الأفراد والأمم عيب فيها، بل طبيعة لها، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: **"لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم"**[1]، وفي إغفال تفاصيل الواقع مع أهميتها يقول فيلسوف الإسلام محمد إقبال في روائعه:

لحظة واحدة إن تغفل ألف ميل زاد بعد المنزل [2].

ولقد صدّق القرآن هذه الوجهة العملية في التفكير، فدعا إلى السير في الأرض والنظر في ملكوت السماوات وفي أحوال الأمم، فقال تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ**﴾ [3] وقال: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ [4].

وبسط نبأ عدد غير قليل من أحوال الأمم السابقة من خلال القصص الذي هو في الحقيقة تاريخ حفظه الله لنا لأهميته، وفي معنى ذلك يقول تعالى: ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾[5]، وقال عز وجل: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ** ﴾[6]، وقال سبحانه: ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[7]، وقال: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾[8]، ذلك أن الحقائق الكونية تبنى هي الأخرى على الحقائق لا على الافتراءات أو خيالات المداحين وعواطف الشعراء.

والحق أن من نقاط القوة في حضارة الغرب اليوم . وهي ذاتها نقطة الضعف لدى المسلمين . الإحاطة بمنهج الاستقراء الكاشف للحقائق العلمية الطبيعية والإنسانية.

([1]) رواه أحمد مسند المكثرين، رقم 13006.

([2]) نقلا عن : سعيد جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، الجزائر، ط1، 1990م ، ص.....

([3]) الروم، 41.

([4]) الحشر، 2.

([5]) يوسف، 111.

([6]) الكهف، 13.

([7]) الأعراف، 176.

([8]) آل عمران، 44.

ومصدرية الواقع والتاريخ للسنن الإلهية هي " مصدرية تصديقية " كذلك، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد فتح للبشر باب التجربة ليتأكدوا باستمرار من صدق ما قرره الوحي من حقائق الوجود، وأوجب على الإنسان البحث في الكون ليعلم أن القرآن الذي قرر . قبل البحث والتجريب ودونهما . السنن الكونية بوضوح شديد، إنما هو من عند الله، فتطمئن نفسه ويركن عقله لمقررات الوحي الأعلى. فالوحي يقرر والواقع يصدق، وهما في الحقيقة مصدران متكاملان لإيضاح الحقيقة الكلية الواحدة، وهذا بعض معنى قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ . فما هو وجه التكامل بين مصدري المعرفة السننية في الإسلام؟

التكامل بين المصدرين:

إن مسألة المصادر المتعلقة باستخراج السنن من هذا الوجه . وجه التكامل . هي مسألة حيوية مرتبطة مباشرة بصميم المعرفة الإسلامية، أو بإسلامية المعرفة، فالمصادر المعرفية في الإسلام، مصدران على وجه العموم: الكتاب المسطور(القرآن الكريم)، والكتاب المنظور(الكون والحياة) كما سبق الذكر، وإذا كان كل منهما يعد مصدرا أساسيا للمعرفة في الإسلام، فإن لكل منهما مجاله المختلف بعض الشيء عن مجال الآخر اختلاف تكامل وتنوع بالنسبة لموضوع السنن.

إذ ما يعد أساسيا في استخراج السنن من الكتاب، يعد تكميليا في التاريخ وواقع التجربة، وما يعد أساسيا في استخراج السنن من العالم الخارجي، يعد تكميليا في القرآن وذلك حسب موضوع السنن.

وبيان ذلك كما يلي: لا يعد القرآن الكريم مصدرا أساسيا في المعارف الرياضية وقوانين الفيزياء والبيولوجيا مثلا، ولا نطمع أن يكون، فليس ذلك من مهماته، إنه من مهمات العقل البشري الذي هو جزء من نظام هذا الكون، وإنّ ما ورد في القرآن من سنن تتعلق بهذه العلوم وغيرها من العلوم الكونية إنما كان لإثبات البعد الرباني للقرآن الكريم كنوع من الإعجاز، ولإشاعة روح التفكير العلمي لدى الإنسان عموما والمسلم على وجه الخصوص، وتربيته على ذلك، ولاستبعاد الخرافة والدجل والادعاء الكاذب وهذه مسألة أساسية في القرآن.

ولم يضع القرآن الكريم نفسَه في محل العقل الباحث، ولم يرُم إحصاء القوانين ولا الدخول في التطبيقات الجزئية والكيفيات التقنية والفنية للعلوم؛ لكنه تناول السنن من زاوية كان أساسيا فيها، ففيه تنبيه وإيجاب للعقل لكي يبحث، وفيه الإشارة إلى ثبات السنن، وفيه بيان لارتباطها بالله، وفيه بيان لحكمتها ومعنى وجودها، وفيه تجلية لموقف الإنسان حيالها، وكل هذا يعد القرآن أساسيا فيه.

ويمكن أن أشرح ذلك بشكل دقيق باستعمال التقسيم السابق للسنن الإلهية إلى سنن غايات، ترتبط مباشرة بوظيفة القرآن ككتاب هداية، وسنن وسائل، إما في سبيل تحقيق الهداية أو الإعراض عنها.

فالقرآن لا يزاحم العقول ولا يعوض التجارب في سنن الوسائل، ولكنه يوضح غايتها ويحذر من مغبة سوء استعمالها، ويبين طرق تصريفها لصالح البشرية، والدوائر التي ينبغي للعلاقات الإنسانية أن تدور فيها، وهذه هي سنن الغايات.

فالقرآن يقف حاجزا منيعا أمام الفلسفات والأفكار التي تنحرف بالإنسان والكون معا عن التوافق الذي خلقا من أجله، والغاية التي وجدا لأجلها، ويتحداها بأنها لن تصل بالإنسان إلى السعادة، حتى يلج الجمل في سم الخياط ما لم

تحترم السنن التي قررها على أنها الحق دون سواه، وفي الوقت ذاته يقف مؤيدا لكل فهم أو سلوك يؤكد من خلال التجارب التاريخية والوقائع العلمية والنفسية والاجتماعية صدق ما قرره القرآن، بل ويوجب القرآن على الإنسان الخليفة أن ينزل ذلك في حياته الحضارية ويعده من أعماله الأساسية، ويسن ذلك له بتوضيح منهجه ومثاله في القرآن الكريم، ويضمن الله على ذلك العوض من المال والجهد والثواب الجزيل.

فسنن الحضارة والتاريخ ـ موضوع الدراسة ـ على هذا، من السنن الأساسية في القرآن التكميلية في غيره، لذلك نجد القرآن يكثر من قص القصص، والتأكيد على أنه تاريخ يحمل قوانين تتكرر مع الأمم، وتدعوا إلى التأمل والاعتبار، قال تعالى:﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾[1] وقال: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾[2].

والتاريخ الذي دعا القرآن للنظر فيه ليس كما يتصور البعض تاريخ البشر فقط، بل هو التاريخ بمعناه الشامل العام، والنظر الذي دعا إليه القرآن ليس هو التأمل السطحي، بل هو النظر العلمي الذي تنتج عنه النظريات والقوانين الصالحة للتعميم والتطبيق.

ففي تاريخ الأمم علم، كما في تاريخ المستحثات والصخور والمعادن والنبات علم، كما في تاريخ الإنسان والحيوان علم.. إن العلم بسنن الله كامن وراء تاريخ الخلق كله، حتى قال تعالى في القرآن الكريم:﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾[3].

وللقصور البشري عن الإدراك ومحدودية العقل دورَه في هذا الأمر، فقد لا يقتنع بعض الناس بما يقرره القرآن الكريم من حقائق وسنن، وقد لا يفهم العقل البشري بعض ما يقصده، فالقرآن هنا يرفض أن يقف الناس منه موقفا سلبيا، بل يدفعهم دفعا إلى البحث والاكتشاف والنظر في غور التاريخ لاختبار صحة فهمهم لما قرره، وعلى رأس هذه الحقائق تقرير القرآن الكريم أن لا سبيل إلى سعادة البشر السعادة الدينية والدنيوية الحقيقية إلا باتباع منهج القرآن الكريم واحترام سنن الله وفطرته، وهذه الحقيقة القرآنية الكبرى ليست ادعاء يفرض القرآن على الناس الإيمانَ بها بالغيب، بل هي حقيقة كونية بقدر ما هي حقيقة شرعية وهو ما تحاول بيانه نظرية السنن الإلهية في الحضارة.

وكأن القرآن قد قال: عربد أيها الإنسان واختر ما تهوى من الطرق وسوف تصل بك التجارب بعد البحث المعمق المستمر إلى ما قرره القرآن من الحقائق الكبرى عن الله والإنسان والكون والحياة، فلا مفر من الله إلا إليه:﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[4]، إن القرآن يعظ ويأمر، ولكن خلف وعظه وأمره تكمن الحقيقة العلمية والكونية الكبرى.

والخلاصة: أن هناك وضعا معينا لمصادر المعرفة السننية، بين الوحي والتجربة والعقل هو الوضع الصحيح، والإخلال به إخلال بهذه المعرفة وبفائدتها العملية، فالوحي يؤكد على خالقية السنن وثباتها وحكمتها وعدالة الله فيها،

([1]) يوسف، 111.

([2]) الحشر، 2.

([3]) العنكبوت، 19.

([4]) الأنعام، 154.

وبين أصولها بما هي مناهج للسعادة أمر بها أو للشقاء نهى عنها، ويلفت القرآن النظر إلى التاريخ والتجربة البشرية، بما هي محك يمكن للإنسان أن يحصل منه معرفة علمية لما يقرره الوحي، فالتجربة البشرية تصدق الوحي من جهة، وتكشف عن كثير من الجزئيات من جهة ثانية، أما العقل البشري فإنه ـ بما هو مبادئ قبلية ضرورية ـ يفهم الوحي من جهة، ويقرأ التجربة من جهة ثانية.

فبدون العقل لا معنى للوحي ولا للتجربة، وبدون الوحي يتخبط العقل في بعد وجودي (ميتافيزيقي) ليس هو أهلا للحكم فيه بشيء، كما سنرى في مجال البحث في الأسس التي تقوم عليها السنن، إذ لا يملك وسائله، فيحكم بالتخرص والظن في مقام العلم واليقين أو يعرض عن البحث اعترافا بعجزه، فيتحول إلى عقل إجرائي صرف يفتقد إلى الأساسين المبدئي والغائي.

والتجربة البشرية لا معنى لها ما لم تسفر عن نتائج وقواعد وسنن تفهم على ضوء المعرفة العقلية، والسنن كذلك لا فائدة ترجى منها ما لم تكن مطردة ثابتة في المستقبل كما في الماضي.

الخلاصة: